الجوائح في الدولة العربية الإسلامية حتى منتصف القرن الرابع الهجري

م. م. عادل عباس جسام
جامعة تكريت - كلية الآداب
قسم التاريخ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله والحمد لله وبه نستعين، يتحتم على الباحثين في الجوانب الاقتصادية للدولة العربية الإسلامية أن ينقبوا عن كل ما له صلة ومساس بالأحداث التي طرأت على الدولة في تاريخها الطويل والتي هي في جانب من جوانبها تحمل وجهاً وملمحاً ذي صلة بتلك الجوانب.

وفي هذا الإطار عقدنا العزم وعكفنا على دراسة الجوائح والكوارث التي عصفت أحداثها بالدولة العربية الإسلامية في أوقات متباينة مبينين أسبابها وعللها أولاً ومقدار تأثيرها على الرعية، ومدى تعامل مؤسسات الدولة بدءاً بولي الأمر و مؤسسة الخلافة والمعنيين بإدارة الدولة في حال حدوثها، وهل كانت على مستوى مرضي يتناسب وحجم الكارثة أم خلاف ذلك.

تعد الجوائح والكوارث من الأمور السماوية، وأنها من فعل الطبيعة، بمعنى أنها فعل وأمر سماوي بغير جناية آدمي، وبطبيعة الحال فأن أحداثها وقعت في أماكن متفرقة وأزمان متباعدة نسبياً، وتركت آثاراً سلبية ألقت بظلالها على الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية للدولة العربية الإسلامية.

فعمدنا خوض غمار الموضوع بالاستدلال إلى عدم تناوله من قبل الباحثين على حد علمنا، فزاد ذلك من اهتمامنا واندفاعنا للكتابة فيه من جهة، وصعوبة تناوله من جهة أخرى، ذلك أنه صعب عليّ أن أتلمس طريقي وأوجه بحثي الوجهة الصحيحة دون الرجوع والارتكان

إلى ما كتب فيه من قبل كتابنا المحدثين لو أنهم كتبوا، فأنصب جهدي في تناوله بالاعتماد على المصادر الأولية والأصيلة والمعتمدة من الرواة الأولين في دراسة منهجية تحليلية استقرائية.

وقد قسمت بحثي على أربعة مباحث كان أولها التعريف بالجوائح وأنواعها كالبَرَدْ والزلازل والسيول والجدب والمجاعات والآفات والأوبئة، أما المبحث الثاني فتناولت فيه تفصيل كل ما يتعلق بالأوبئة والطواعين، وعلاقة ذلك بالمكان وفساد الهواء وكثرة الرطوبات والكثافة السكانية مستشهداً بالأحداث التي وقعت فعلاً من تاريخ الدولة العربية الإسلامية.

أما المبحث الثالث فقد اختص في المجاعات وحالات القحط التي طالت أحداثها الكثير من الأمصار والمدن وما أفرزته من نتائج سلبية أدت إلى موت الكثير من الناس، مع الإشارة إلى دور الدولة في التعامل مع تلك الأزمات.

وفي المبحث الرابع والأخير سلطت الضوء على الزلازل والسيول التي ضربت بأطنابها أماكن عدة أودت بحياة الآلاف من الناس.

وأخيراً أرجو أن أكون قد وفقت فيما ذهبت إليه في استجلاء كل ما يتعلق بهذا الموضوع والإحاطة به مع مراعاة الموضوعية في البحث التاريخي لما فيه تبيان وتوضيح ما عتم من صورة وعرضها بشكل يفيد المتلقي والقارئ ويعكس صورة جلية وواضحة دون لبس وغمط للوقائع والأحداث التي طرأت على تاريخ الدولة الإسلامية والتي هي أكثر بريقاً وإشراقاً وتأثيراً وتأثراً في مجمل فصولها الوضاءة ومن الله التوفيق.

المبحث الأول: مفهوم الجوائح وأهمية دراستها وتأثيرها

الجوحة أو الجائحة: الشدة والنازلة العظيمة التي تجتاح المال من سنة أو فتنة، وكل ما أستأصله: فقد جاحه وأجتاحه، وجاح الله ماله وأجائحهُ، بمعنى أهلكه بالجائحه[1].

جائحة: جاحتهم السنة جوحاً وجياحة وأجاحتهم واجتاحتهم: استأصلت أموالهم، وهي سنة جائحة: جدبة، وقيل جماع الجوائح: كل ما أذهب الثمر أو بعضها من أمر سماوي بغير جناية آدمي، والجائحة: تكون بالبَرَدْ يقع من السماء إذا عظم حجمه فكثر ضرره، وتكون بالبَرَدْ المحرق أو الحر المفرط حتى يبطل الثمن، والجوح: الهلاك وقيل الجائح: الجراد[2].

والجدب: هو القحط، وقيل هي الأرض التي لا نبات بها [٣]، ومنه حديث الاستسقاء:(هلكت الأموال وأجدبت البلاد) أي قحطت وغلت الأسعار[٤].

والكوارث من الفعل كرث، كرثه الأمر يكرثه، ويكرثه كرثاً، وأكرثه:ساءه وأشتد عليه وبلغ منه المشقة[٥].

والجارود: السنة الشديدة المحل، كأنها تهلك الناس[٦].

والمحل: انقطاع المطر، أمحلت الأرض والقوم، وأرض محلٌ، وزمن محل وما حل[٧].

الوباء: الوبا بالقصر والمد والهمز: الطاعون والمرض العام، وقد أوبأت الأرض فهي موبئة، ووبئت أيضاً فهي موبوءة[٨].

تنطوي أهمية دراسة الجوائح لتبيان أثرها في السياق العام للأحداث التاريخية والتي مرت بها الدولة العربية الإسلامية في كل عهودها السالفة والتي أثرت تأثيراً مباشراً في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية فضلاً عن أن كشف كيفية تعامل الدولة إزاء تلك الأحداث وهل كانت بمستوى الحدث، هذا ما سنحاول معرفته واستخلاصه في بحثنا.

المبحث الثاني: الأوبئة والطواعين

هي المرض العام والوباء الذي يفسد له الهواء فتفسد به الأمزجة والأبدان[٩]،والسبب الغالب للطاعون هو فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة، وإذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيواني وملابسه دائماً، فيسري الفساد إلى مزاجه، فإذا كان الفساد قوياً وقع المرض في الرئة وهذه هي الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة، وأن كان الفساد دون القوي والكثير فيكثر العفن ويتضاعف وتكثر الحميات في الأمزجة وتمرض الأبدان وتهلك، وسبب كثرة العفن والرطوبات الفاسدة في هذا كله كثرة العمران ووفوره آخر الدولة لما كان في أوائلها من حسن الملكة ورفقها وقلة المغرم[١٠].

إستأذن أميرا الكوفة والبصرة وهما سعد بن أبي وقاص وأبو موسى الأشعري خليفة المسلمين عمر بن الخطاب (ﷺ) بعد الحرائق التي طالت المصريين اللذان بنيا اول الأمر

بالقصب بالبناء باللبن فقال: أفعلوا ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات، ولا تطاولوا في البنيان وألزموا السنة تلزمكم الدولة[١١].

ولم نجد ما يشير إلى حدوث أمراض أو علل في هاتين المدينتين حتى ذلك الحين، وبعد مرور ثلاثة عقود وقع الطاعون بالكوفة[١٢]، وتحديداً سنة (٤٩) للهجرة ما يؤكد أن الطاعون والموتان يكون في المدن الموفورة العمران أكثر من غيرها بكثير[١٣].

وتعد الشام من المناطق الموبوئة ودمشق تحديداً وهي أسبق من مدن البصرة والكوفة في العمران والقدم، فنجد أن طاعون عمواس فتك بأهلها وتفانى فيها الناس[١٤].

ومن أمثال العامة يقول الأصمعي:حمى خيبر،وطحال البحرين، ودماميل الجزيرة،وطواعين الشام[١٥].

وفي عام (٦٥) للهجرة وقع بالبصرة بما دعي بالطاعون الجارف فهلك به خلق كثير[١٦]، وقيل أن طول البصرة فرسخين وعرضها فرسخين في بدايات العصر الأموي[١٧]، ما يشي بكثرة ساكنيها وتوفرها على كثافة سكنية هائلة، وربما تخلل خططها وجود المواشي لغرض التربية فنتج عن ذلك فساد هوائها وكثر العفن والرطوبة في مبانيها، مع الأخذ بنظر الاعتبار أن مجاري الصرف بالضرورة كانت بدائية وقاصرة، ولهذا يطول عمر الطاعون ويفتك بأهلها، وقد قيل أن أهل البصرة لا يفتحون باب هدى، ولا يغلقون باب ضلالة، وقد رفع الطاعون عن جميع أهل الأرض إلا أهل البصرة[١٨]، وربما هناك بعض التجني في هذا القول.

ويذكر البلاذري أن البصرة وقع فيها الطاعون الجارف في سنة (٦٩) للهجرة فكثر فيها الموت حتى جعل أهل الدار يموتون عن آخرهم ولا يجدون من يدفنهم وأمير البصرة يومئذ عمر بن عبيد الله من قبل مصعب أبن الزبير[١٩].

وبعد مرور ستين عاماً أي ستة عقود على طاعون عمواس أصاب أهل الشام الطاعون مرة أخرى[٢٠]، ففي سنة (٧٩) للهجرة وقع الطاعون العظيم بالشام حتى كادوا يفنون من شدته، ولم يغز أحد من أهل الشام لضعفهم وقلتهم، ووصلت الروم أنطاكية فأصابوا خلقاً لعلمهم بضعفهم[٢١]،وبعده بأقل من سنة أجتاح الطاعون الجارف البصرة[٢٢]فيما ذكره الطبري، ولم يتبين لي أهو نفس طاعون سنة (٦٩) للهجرة أم لا.

وبعد مرور ثمان وعشرون سنة أي ثلاثة عقود وفي عام (١٠٧) للهجرة بالتحديد وقع الطاعون بالشام وكان شديداً[٢٣]، ولم تمر سوى ثمان سنوات حتى وقع الطاعون بالشام أيضاً وذلك في سنة (١١٥) للهجرة[٢٤].

وفي عام (١١٦) للهجرة أصاب العراق طاعون شديد ومثله في الشام إلا أن أشده كان في واسط – فيما ذكر–[٢٥]، ومن المفيد الإشارة إلى أن واسط قد أبتدئ ببنائها وتمصيرها على يد الحجاج بن يوسف الثقفي عام (٨٣) للهجرة وتم الانتهاء منها عام (٨٦) للهجرة، وحرص الحجاج على أفراد خطط لأهل المهن كل حسب مهنته، وجعل الأسواق تفصل بين الخطط وقلب المدينة[٢٦]، وعند حساب المدة منذ نزولها وحتى وقوع الطاعون نجدها ثلاثة عقود أي ثلاثون سنة بالتحديد وهي كافية لفساد الهواء وكثرة العفن وازدياد الرطوبة وتهيئة الأجواء المناسبة لمرض ووباء الطاعون.

ويتكرر المشهد في البصرة وفي سنة (١٣٠) للهجرة تحديداً،إذ وقع الطاعون فيها [٢٧]، فإذا ما سلمنا برواية البلاذري في أن طاعون البصرة في عام (٦٩) للهجرة وافتراض إن طاعون سنة (١١٦) للهجرة الذي شمل العراق ولم يذكر البصرة تحديداً، سنرى ان المدة بين وقت آخر وباء وهذا الوباء كانت ستة عقود تقريباً وهي ستون سنة تحديداً لم تتعرض لها البصرة للوباء.

وفي عام (١٦٧) للهجرة فشا الموت في بغداد والبصرة وصحبه سعال شديد ووباء شديد[٢٨]، وأظلمت الدنيا فكانت كالليل حتى تعالى النهار[٢٩]، في حين يذكرها اليعقوبي في أواخر سنة (١٦٨) للهجرة ودخول سنة (١٦٩) للهجرة ويقول أصاب الناس وباء وموت كثير وظلمة وتراب أحمر كانوا يجدونه على فرشهم وعلى وجوههم[٣٠].

ولم يحدث أن تعرضت مكة إلى وباء حتى وقع فيها سنة (١٧٤) للهجرة، ما أحال دون دخول الخليفة هارون الرشيد فأبطأ،ثم دخلها يوم التروية فقضى طوافه وسعيه ولم ينزل مكة[٣١].

يذكر أن الخلفاء كانوا يتحاشون الدخول إلى المناطق الموبوءة كما فعل الخليفة عمر بن الخطاب (ﷺ) حين عزف عن الدخول إلى الشام إذ بان طاعون عمواس فتلقاه أمير الشام

أبا عبيدة وقال: أفراراً من قدر الله ؟ قال: نعم من قدر الله إلى قدر الله، وقد مات أبو عبيدة (ﷺ) في ذلك الطاعون سنة ١٨ هجرية، ولعل من أسباب نزول الخلفاء الأمويين خارج دمشق وفي منطقة الرصافة أنهم كانوا يهربون من الطاعون الذي يقع بالشام فينزلون البرية، والرصافة (مدينة رومية بنتها الروم في القديم، فخربت فعمروها وبنى بها قصرين)[٣٢].

ونعُمَ العراق بفترة ليست بالقصيرة من السلامة وعدم حصول حالات وباء حتى عام (٢٥٦) للهجرة، إذ وقع الوباء بالعراق فمات خلق كثير وكان الرجل يخرج من منزله فيموت قبل أن ينصرف، ويقال أنه مات ببغداد في يوم واحد أثنا عشر ألف إنسان[٣٣]،وكلبت الكلاب والذئاب بالبادية فكانت تطلب الناس والدواب والبهائم فإذا عضت إنسان أهلكته[٣٤]،وكثرت الأمراض والعلل في بغداد وكذلك العفن وذلك في سنة ثلاثمائة للهجرة[٣٥]، وكثرت الأمراض الدموية في بغداد أيضاً أواخر تموز وآب من سنة (٣٠١) للهجرة، وكان ذلك المرض نوع سموه الماشري وكان طاعوناً قاتلاً[٣٦].

وفي سنة (٣٢٣) للهجرة وقع الطاعون ووقع الموت في بغداد وخص ذلك الضعفاء، وجعل على النعش أثنين وربما كان بينهما صبي وربما بقي الموتى على الطريق، وربما حفرت حفائر كبائر فيلقوا فيها[٣٧].

وفي السنة نفسها وفي سابقة لم نجد لها ذكراً في المصادر الأولية وقع الوباء في أصبهان ومات نحو مائتي ألف إنسان[٣٨].

ويتكرر المشهد سنة (٣٤٨) في بغداد حيث كثر موت الفجأة بالطاعون فجلس أحد القضاة بسواده في الجامع ليحكم فمات، وأفتض رجل بكراً فمات على صدرها[٣٩]، وتبعه بعد عشر سنين وفي عام (٣٥٨) تحديداً موت الفجأة في بغداد من أثر مرض الطاعون[٤٠].

ويذكر أن الوباء لا يطال الإنسان فقط، فقد وقع الوباء في البقر وظهر في الناس الجرب والبثور في سنة (٣٢٥) للهجرة في بغداد[٤١]، ويذكر في موضع آخر أن الموت وقع في المواشي والعلل بين الناس وكثرت الحمى ووجع المفاصل ودام الغلاء وهلك الفقراء في أحداث سنة (٣٢٩)[٤٢]، وتبعها في أحداث سنة (٣٣٠) بأن شغل الناس بالمرض والفقر[٤٣]، ورافقت تلك الأحداث الحاجة والفقر والغلاء حتى أن الناس في سنة (٣٣١) للهجرة أكلوا

لحوم الميتة والكلاب ووقع الوباء[٤٤]، وعم الناس في سنة (٣٤٣) حميات ونزلات وأوجاع حلق[٤٥]، وحدثت علة مركبة في مدينة أصبهان ضمن أحداث (٣٤٣) للهجرة من الدم والصفراء فشملت الناس وبقيت العلة طالت (الأهواز) و بغداد و واسط وأقترن بها وباء حتى كان يموت كل يوم ١٠٠٠ نفس[٤٦]، وعادت أمراض وأورام الحلق وكثر موت الفجاءة في بغداد سنة (٣٤٦) للهجرة[٤٧].

ونخلص هنا لما لهذه من الأوبئة والطواعين من أثر سلبي في حياة الناس ومعيشتهم ومستوى أدائهم وتفاعلهم مع المجتمع مع ما تفرزه من خسائر بشرية واقتصادية جسيمة، ولم نلحظ أثراً ملموساً وبيناً لاهتمام الدولة بتلك الأحداث في حال وقوعها.

المبحث الثالث: المجاعات والقحط

القحط: الجدب، وقحطت قحطاً، هو دعاء بالجدب، وفي الحديث: يا رسول الله، قحط المطر وأحمّر الشجر، يقال قحط المطر وقحط إذا أحتبس وأنقطع وأقحط الناس إذا لم يمطروا، وهو الجدب، لأنه من أثره[٤٨].

ففي السنة السادسة للهجرة أجدب الناس جدباً شديداً فاستسقى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في شهر رمضان بالناس[٤٩]،ومع أن أهل قريش قبل فتح مكة هم دار حرب إلا إن هذا لم يمنع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يرسل إلى أبي سفيان مالاً ليفرقه في أهل مكة لما بلغه من حاجتهم[٥٠].

وتأتي سنة (١٨) للهجرة لتكون مقياساً لمدى قدرة الدولة على التعاطي زمن الكوارث والمجاعات مع رعيتها، إذ أثبت الخليفة عمر بن الخطاب (ﷺ) قدرة متميزة واستثنائية في إدارة تلك الأزمة، ذلك أن الدولة في أول أمرها لا بد لها من الرفق في ملكتها والاعتدال في أيالتها[٥١]، فقد تعامل الخليفة عمر (ﷺ) مع المجاعة التي حلت بأهل المدينة في تلك السنة بشكل ينم عن الحرص والمسؤولية الشرعية والأخلاقية وحالات من إيثار النفس لم نجد مثيلاً لها طول عمر الدولة الإسلامية في كيفية تعامل ولي الأمر ورفقه بالرعية، فكان الأجدى بمن تولوا إدارة الدولة من بعد أن تشكل لهم تلك التجربة إلهاماً ونبراساً وقدوة في التعاطي مع الأزمات ولكن هيهات.

فقد أصاب الناس فيما أطلق عليه بعام الرمادة[٥٢]، مجاعة شديدة ولزبة[٥٣]، وجدوب وقحوط وذلك سنة (١٨) هجرية[٥٤]، وآلى عمر (ﷺ) على نفسه إلا يذوق سمناً ولا لبناً ولا لحماً حتى يحيا الناس من أول الحيا[٥٥].

ويتجلى اهتمام الخليفة عمر (ﷺ) بتلك المجاعة من خلال الرسائل البليغة التي تبادلها مع عمال الأمصار فها هو يخاطب عمرو بن العاص (ﷺ) عامله على مصر: أتراني هالكاً ومن قبلي وتعيش أنت ومن قبلك ؟فيا غوثاه ثلاثاً فرد عليه: أما بعد أتاك الغوث فلبث لبث[٥٦]، لأبعثن إليك بعير أولها عندك وآخرها عندي[٥٧].

وبعث برسائل إلى سعد بن أبي وقاص (ﷺ) عامله على العراق وكذلك معاوية بن أبي سفيان (ﷺ) عامله على الشام في نفس الغرض[٥٨].

وقال عمر(ﷺ) حين قدموا له لحماً من كبد وقدر من سنام في عام الرمادة:(بخ بخ [٥٩]، بأس الوالي أنا إن أكلت طيبها وأطعمت الناس كراديسها، ارفع هذه الجفنة[٦٠])، ودامت محنة أهل المدينة في عام الرمادة تسعة أشهر[٦١]، حتى قيل لو لم يرفع الله المحل عام الرمادة لظننا أن عمر يموت هماً بأمر المسلمين[٦٢].

ويرد أن أبا عبيدة بن الجراح أمير الشام أول من قدم إلى الخليفة عمر (ﷺ) في أربعة آلاف راحلة من طعام[٦٣]، ويرد في مصدر آخر أن الخليفة عمر (ﷺ) خرج يريد الشام سنة ١٧ للهجرة وقد بدأ طاعون عمواس[٦٤]،وما يعني أن طاعون عمواس أسبق من المجاعة التي أصابت المدينة في عام الرمادة، وربما صار تداخل في كلتا الحادثتين، وأن أبا عبيدة قد توفي في أواخر الطاعون وليس في أوله، وانه قَدِم إلى المدينة ومن ثم رجع إلى الشام فتوفي فحل محله معاوية بن أبي سفيان الذي أسهم هو الآخر في إمدادات أهل المدينة في عام الرمادة.

ترافق المجاعات وكتحصيل حاصل مسألة غلاء الأسعار، لأن الناس واثقون في أقواتهم بالاحتكار، فإذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات، فغلا الزرع وعجز منه أولوا الخصاصة فهلكوا[٦٥]، فقد أشترى غلام لعمر (ﷺ) في عام الرمادة من السوق عكة من سمن بأربعين درهماً، فلم يأكل وتصدق بها[٦٦]، وبعد أن حمل الطعام من مصر بالسفن حتى ورد البحر ثم حمل من الجار إلى المدينة[٦٧]، بعد أن غلا السعر وأحتكر الناس فنهى عمر (ﷺ)

عن الاحتكار وكذا الحال في الشام عندما وقع طاعون عمواس(٦٨)، وبيع فص الجوهر بخمسة دراهم وستة دراهم وهو خيرٌ من عشرين ألفاً، فكان دأب الخليفة عمر (ﷺ) في عام الرمادة أن يسأل عن الأسعار(٦٩)، وشوهد وهو يغدي الناس ويدور على القصاع ويقول: يا يرفأ زد هؤلاء لحماً، زد هؤلاء مرقة(٧٠).

وشوهد الخليفة عمر (ﷺ) عام الرمادة وهو يحمل على ظهره جرابين وعكة زيت في يده متجهاً إلى صرار، فإذا صرم(٧١)، قد أخرجوا رقة العظام فيسحقوه، فطرح ردائه ثم أتزر فمازال يطبخ لهم حتى شبعوا، وجاء بأبعرة وحملهم حتى أنزلهم الجبانة ثم كساهم وصار يختلف إليهم حتى رفع الله المجاعة(٧٢).

وبعد أن تم تجاوز المحنة غدت أسعار المدينة كأسعار مصر في حينها التي كانت في أحسن حالاتها وعاش الناس في بحبوحة ورخاء(٧٣).

ونرى ان غلاء الأسعار هو ناتج عرضي وحتمي عند حصول الكوارث ومتى ما انجلت الأسباب والمقومات لأية حادثة أو كارثة فأنها ستزول بزوال المؤثر وترتد الحالة إلى الوضع الطبيعي، ويبدو أن تلك العلاقة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمدى قدرة واهتمام الدولة وولي الأمر في التعامل الصحيح مع الأزمة حال وقوعها، وسنجد ان ذلك الأمر متباين ونسبي فمتى ما كانت الدولة قوية وراعية لمصالح الأمة على نحو جيد ومتصل في حال حدوث الأزمة كلما كانت الخسائر أقل وأخف وطأة، في حين إذا كانت الدولة ضعيفة وتلكأت في التعامل الصحيح والحريص على الرعية كانت الخسائر أكبر، وبالتالي يصيب الوهن والضعف جسد الدولة وتكثر عليها المحن وتتكالب عليها الأمم وتصبح مغلوبة على أمرها على نحو سريع.

وفي عام (٦٣) للهجرة أصاب الناس مجاعة وغلت الأسعار في مكة في ولاية أبن أبي ثور لها عبد الله بن الزبير فكان يقول: (اتقوا الله وتأسوا بينكم فانزعوا عن المعاصي فانه أهلك قوم صالح في ناقة قيمتها خمسمائة درهم فسمي بمقوم الناقة، وكان الناس يأكلون من ليل إلى ليل ما ينالون إلا حسى من حنطة وعدس فعزله ابن الزبير(٧٤).

ولم تكن بلاد الشام بمنأى عن المجاعات ففي عام (٦٨) للهجرة وقع القحط الشديد بالشام حتى لم يقدروا من شدته على الغزو(٧٥)، وغداة وقعة دير الجماجم عام (٨٣) للهجرة

كانت المواد تأتي أهل العراق من الكوفة ومن سوادها فيما شاءوا من خصبهم، وإخوانهم من أهل البصرة وأهل الشام في ضيق شديد قد غلت عليهم الأسعار وقل عندهم الطعام وفقدوا اللحم وكأنهم في حصار[٧٦].

وفي سنة (٨٨) للهجرة حج بالناس عمر بن عبد العزيز (ﷺ) بعدة من قريش، فشكا أهل مكة أن ماءها قليل وأنهم يخافون على الحاج العطش، وذلك أن المطر قلّ فقال عمر (ﷺ): فالمطلب ها هنا بيّن، فدعوا الله وألحوا في الدعاء فسكبت السماء وجاء سيل الوادي ومطرت عرفة ومنى وجمع، فما كانت إلا عُبْراً ونبتت مكة تلك السنة للخصب[٧٧].

وكذلك أفريقية فانه أصاب أهلها جدباً شديداً في سنة (٩٣) للهجرة، فأستسقى أميرها موسى بن نصير وألحّ إلى منتصف النهار وخطب الناس، فلما أراد النزول قيل له: ألا تدعو لأمير المؤمنين ؟ قال: ليس هذا يوم ذاك، فسقوا سقياً كفاهم حيناً[٧٨]، وقيل أنه قال: ليس هذا الموضع موضع ذاك، وحسن حالهم وأخصبت بلادهم[٧٩].

أما خراسان فهي الأخرى لم تكن بعيدة عن المجاعات والقحط وأن كانت بدرجة أقل بكثير عن سواها من الأمصار الإسلامية لما تتوفر عليه من غنى وزيادة في الإيرادات وهي من أهم الثغور الإسلامية ومفتاح الانطلاق لعمليات الفتح والغزو تجاه بلاد ما وراء النهر، ولهذا فأنها عاشت في بحبوحة من الوفرة المالية ما ينعكس على تحسن القدرات المعاشية لساكنيها من المسلمين، إلا أنها وفي عام (١١٥) للهجرة أصاب الناس بها قحط شديد، وربما يرجع ذلك إلى قلة الأمطار، ولأن المطر يقوى ويضعف ويقل ويكثر والزرع والثمار والضرع على نسبته، ونتيجة لذلك يفقد الناس الأحتكار فيعظم معه توقع الناس للمجاعات فغلا الزرع[٧٩]، وعندما أصاب الناس في خراسان قحط شديد ومجاعة كتب الجنيد بن عبد الرحمن المري عامل الخليفة هشام بن عبد الملك على خراسان:(أن مرو كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله، فاحملوا إليها الطعام)[٨٠].

ويبدو لنا أن تلك الحوادث تحدث هنا أو هناك بسبب انحسار الأمطار وقلة الزرع إلا أنها لا تعدو أن تكون من المشاكل الصغيرة التي يسهل حلها بأن يجلب إلى المناطق المنكوبة الطعام وتحل المشكلة، إلا ان هذا الوضع مرهون بقوة الدولة وقدرتها في إدارة الأمور أثناء

الأزمات والنكبات وتذليل الصعاب، ويأتي ذلك كله في غنى الدولة سياسياً واقتصادياً، وقد ازدهرت الحياة الاقتصادية في العراق وعاشت فترة غير مألوفة من الهدوء في طولها فترة حكم الخليفة هشام بن عبد الملك[٨١].

عدت سنة (١٣٩) للهجرة إبان حكم الخليفة أبو جعفر المنصور سنة خصب في الحجاز وأغلب البلدان الإسلامية لكثرة الأمطار ووفرة الزروع[٨٢]، وفي سنة (٢٢١) للهجرة أصاب خراسان والري وأصبهان مجاعة وعزّ الطعام ووقع الموت[٨٣].

ويجب الذكر أن الزط عاثوا في طريق البصرة، فقطعوا فيه الطريق واحتملوا الغلات من البيادر بكسكر وما يليها من البصرة وأخافوا السبيل وأسرهم عجيف بن عنبسة وأحصاهم (٢٧٠٠٠) سبع وعشرون ألف رجل وامرأة وصبي ثم جعلهم في السفن وأقبل بهم حتى انزلهم الزعفرانية[٨٤]، ويبدو ان هؤلاء الزط أثروا بشكل سلبي على تدفق الغلات والمواد الغذائية من وإلى بغداد والبصرة.

وفي سنة (٢٢٨) أيام الخليفة الواثق غلا السعر بطريق مكة فبلغ رطل خبز بدرهم وراوية ماء بأربعين درهماً، وأصاب الناس في الموقف حر شديد ثم مطر فيه بَرَدْ[٨٥]، وعاثت بنو سليم بالمدينة وما حولها وكانوا إذا وردوا سوقاً من أسواق الحجاز أخذوا سعرها كيف شاءوا، ثم ترقى بهم الأمر إلى إن أصابوا وقتلوا بعض الناس[٨٦].

وفي سنة (٢٥١) للهجرة غلت الأسعار بمكة بسبب قطع بنو عقيل طريق جدة أيام المستعين[٨٧]، وفي السنة نفسها حاصر إسماعيل بن يوسف مكة حتى تماوت أهلها جوعاً وعطشاً، وبلغ الخبز ثلاث أواق بدرهم واللحم رطل بأربعة دراهم وشربة ماء ثلاثة دراهم[٨٨]، وفي السنة نفسها حدثت فتنة بغداد أيام المستعين[٨٩]، وشكا أهل بغداد غلاء الأسعار[٩٠].

ويبدو إن الدولة حينذاك لم تقف مكتوفة الأيدي إزاء تردي الأوضاع الاقتصادية وغلاء الأسعار الذي فاق الحدود، ففي سنة (٢٥٢) للهجرة قدمت لبغداد أكثر من مائتي سفينة فيها من صنوف التجارات وغنم كثير[٩١]، ويبدو أن الشورجيين هم الذين يعنون بنقل الدقيق والبضائع وغيرها بين مدن العراق[٩٢]، ولم نتبين فيما إذا كانت تلك المئتي سفينة التي قدمت لبغداد تابعة للدولة أم للتجار وهو الأكثر احتمالاً.

وفي سنة (٢٦٠) للهجرة أشتد الغلاء في عامة بلاد الإسلام فانجلى فيما ذكر عن مكة من شدة القحط والغلاء من كان مجاوراً إلى المدينة وغيرها من البلدان ورحل عاملها (برية)، وأرتفع السعر ببغداد فبلغ الكرّ الشعير عشرين ومائة دينار، والحنطة خمسين ومائة ودام ذلك شهوراً[٩٣].

ومنذ عام (٢٥٥) للهجرة قطع صاحب الزنج طريق واسط – البصرة حتى عام (٢٦٧)[٩٤]، ولعل هذا يفسر اشتداد الغلاء في عامة بلاد الإسلام والعراق خاصة على مدى تلك السنين، إذ اضطربت الأحوال وانقطعت السبل وطرق المواصلات ما يؤكد قوة تلك الحركة وخطورتها على الدولة، وبطبيعة الحال فأن جذور تلك الحركة وأسباب اندلاع الثورة كان بدوافع اقتصادية واجتماعية محضة، وليست إلا تأكيداً قوياً على المطالبة بتحسين الوضع المالي والاجتماعي للطبقات العامة[٩٥].

ومنع أهل سامرّا سفن الدقيق من الانحدار إلى بغداد، ومنع أرباب الضياع من دياس الطعام وقسمه، فمنع أهل بغداد الزيت والصابون والتمر وغير ذلك من حمله إلى سامرّا، فضجت العامة بسبب غلاء الأسعار واجتمعت للوثوب وذلك في سنة (٢٧٢) للهجرة أيام الخليفة المعتمد[٩٦]،فزاد اللصوص وقطاع الطرق وأغاروا على دور سامرّا وعلى أموال التجار[٩٧].

ووصل الحد نتيجة للتدهور السياسي والاقتصادي في تلك الحقبة أن طولب أرباب الضياع بخراج سنة مبهمة عن أراضيهم[٩٨]، فزاد قطاع الطرق من الأعراب حتى أوقع فيهم الخليفة المعتضد سنة (٢٧٩) للهجرة فقتل منهم وسبى وغنم[٩٩].

وفي عهد الخليفة المعتضد أيضاً قلت الميرة في ناحية الدينور وغلت الأسعار[١٠٠]، وكان القرامطة يهددون الدولة من خلال السرقة وقطع طرق المواصلات[١٠١]، حتى ان القبائل وكل بها خفارة الطرق، ففي بادية السماوة كانت جماعة من كلب تخفر الطريق على البر فيما بين الكوفة ودمشق على طريق تدمر وغيرها، وتحمل الرسل وأمتعة التجار على ابلها مقابل عمولة[١٠٢].

وفي سنة (٢٨٥) للهجرة خرج صالح بن مدرك الطائي على الحاج بالأجفر فأخذ الأموال والتجارات والنساء[١٠٣]، وكذلك عاثت القرامطة بالكوفة[١٠٤]، وجرت محاولات لردع القرامطة من قبل الدولة إلا أنها كانت يائسة وضعيفة ولم تنجز هدفها بالقضاء عليهم وظلوا يهددون الأمن، فنجد أن الخليفة المكتفي حاربهم في الشام سنة (٢٩٠) للهجرة[١٠٥]، وتعضيداً لهذا القول فإن القرامطة اعترضوا قافلة الحاج في طريق مكة بالعقبة فقتلوهم وسبوا النساء واحتووا على ما في القافلة فأخذوا ما قيمته ألف ألف دينار[١٠٦].

ويتكرر المشهد في سنة (٣٠٢) للهجرة، إذ خرج على الحاج رجل علوي ومعه بنو صالح بن مدرك الطائي فقطعوا عليهم الطريق، وتلف خلق كثير من الحاج بالقتل والعطش، وخرج أعراب على المنصرفين من مكة فأخذوا ما معهم من العين والأمتعة وأخذوا مائتان وثمانون امرأة حرائر سوى المماليك[١٠٧]، وجرت ردة فعل من العامة على الأعراب سنة (٣٠٣) للهجرة، الذين أسروا في وقيعة معهم فقتلتهم[١٠٨]، ما يعني شدة تذمر الأهالي من أفعال هؤلاء.

وضجت العامة من الغلاء سنة (٣٠٧) للهجرة فكسروا المنابر وقطعوا الصلاة، وأحرقوا الجسور وقصدوا دار الروم في بغداد ونهبوها، فأنفذ الخليفة المقتدر بمن قبض عليهم، وأستدعى الوزير حامد بن ابي العباس في إجراء منه لتحسين الوضع المعاشي للرعية كي يبيع الغلات التي له ببغداد، فباعها وأنقص في كل كر خمسة دنانير؛ لأن الوزير حامد بن العباس ضمن خراج العراق وعربستان وأصفهان، فارتفعت الأسعار ببغداد، فجمع الحبوب في تلك البلاد ومنع حملها إلى العاصمة فثارت العامة[١٠٩]، وتحرك محتسب بغداد وأسمه إبراهيم بن بطحا مع هارون بن غريب إلى قطيعة أم جعفر، فسعروا الكر الدقيق بخمسين ديناراً، فرضي الناس وسكنوا وأنحل السعر[١١٠].

ويبدو ان عملية التسعير من قبل الدولة وتدخلها بغرض وضع الحلول المناسبة لتدني الأحوال المعاشية للناس لم يكن ناجزاً وفاعلاً، ذلك أن الطلب على المواد الغذائية أكبر من العرض والذي يتحكم به المتنفذون و التجار بغرض رفع الأسعار من خلال احتكار المواد الغذائية التي تتعلق بحياة الناس من جهة، وبسبب تردي الأوضاع السياسية والأمنية والاقتصادية

للدولة من جهة أخرى[١١١]، ففي سنة (٣٠٩) أفتتن أهل بغداد لتحرك الأسعار من جديد[١١٢]، ذلك أن تدخل الدولة في تسعير المواد الغذائية لم يعد حلاً ناجحاً ودائمياً سبب عدم قدرتها على ذلك.

وفي سنة (٣٢١) للهجرة وكتحصيل حاصل لتردي الأوضاع الاقتصادية وضعف الدولة وقع النهب في بغداد[١١٣]، ووقع حريق ذهبت فيه أموال كثيرة للتجار، فعوضهم الخليفة الراضي ثلاثة آلاف دينار وذلك سنة (٣٢٣) للهجرة[١١٤]، وأحترق كذلك ثمان وأربعون صفاً من أسواق بغداد، أشعلها قوم من الحنبلية ووقع حريق ثالث وزاد السعر ببغداد من جديد حتى بلغ الكر الحنطة مائة وعشرون ديناراً والشعير تسعين ديناراً[١١٥]، وابتدأ من جديد الغلاء وبلغ الكر من الدقيق مائة وستين ديناراً وذلك سنة (٣٢٩) وكثر الموت، حتى كان يدفن الجماعة من غير غسل ولا صلاة[١١٦].

ويجب الإشارة هنا إلى أن الدولة في تلك الحقبة قد تفككت ولم يبق بيد الخليفة غير مدينة السلام وبعض السواد فبطلت دواوين المملكة وضعفت الخزنة، ذلك ان فارس صارت في يد علي بن بويه، والري وأصبهان والجبل على يد الحسن بن بويه، والموصل وديار بكر وديار ربيعة وديار مضر والجزيرة في أيدي بني حمدان، ومصر والشام في يد محمد بن طغج، والأندلس في يد عبد الرحمن بن محمد من ولد هشام، وخراسان في يد نصر بن احمد، واليمامة وهجر أعمال البحرين بيد أبي طاهر الجنابي، وطبرستان وجرجان في يد الديلم[١١٧].

فلنا أن نتصور مدى سوء الحال وتردي الوضع المعاشي في بغداد الخلافة على أقل تقدير، فأضحت الخزينة خاوية وضعيفة، ذلك أن المجاعات والموتان تكثر في أواخر الدول، والسبب في ذلك لقبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر بسبب ما يقع في آخر الدولة من العدوان في الأموال والجبايات أو الفتن الواقعة في انتقاص الرعايا وكثرة الخوارج[١١٨].

ولهذا نجد أن أهل بغداد تعرضوا ربما أكثر من غيرهم إلى خطر المجاعات بسبب تردي الأوضاع الاقتصادية، سبب انحسار الأمطار وقلة الزروع ونقص الإمدادات وامتناع أغلب الدويلات التي انفصلت عن مركز الخلافة في رفد الخزينة بالأموال، وظل الغلاء ملازماً طيلة تلك السنوات حتى وصل الكر الحنطة إلى (٣١٦) دينار وذلك في سنة (٣٣٠) للهجرة وأكل

الضعفاء الميتة ودام الغلاء[١١٩]، وفي سنة (٣٣١) للهجرة أغاث الله الضعفاء عند تعذر الخبز بجراد أسود[١٢٠]، وأستمر الغلاء وكثر اللصوص وزادت الفتن، ومنذ سنة (٣١٧) بطل الحج لعشرة سنوات ولم يحج أحد من العراق بسبب اعتداءات القرامطة، حتى تم الاتفاق معهم على مكس الحاج وذلك سنة (٣٢٧)،وهي أول سنة مكس فيها الحاج[١٢١].

أشهد الخليفة المتقي على نفسه بالخلع وبايع المستكفي بالله[١٢٢]، وبعد سنة وأربعة أشهر سمل المستكفي وأحضر المطيع لله وتسلم الخلافة[١٢٣]، وزادت الفتن التي أثقلت كاهل الرعية، وقد تلف عدد كبير من الناس في القتال بين معز الدولة وناصر الدولة وذلك في سنة (٣٣٥) للهجرة[١٢٤].

وفي سنة (٣٤٠) للهجرة تجرأ صاحب عمان وبمساعدة القرامطة على دخول البصرة[١٢٥]، وتلاها في سنة (٣٤٤) للهجرة ظهور جراد كثير فأتى على الغلات الصيفية والثمار وأضر بالشجر والثمار[١٢٦]، ليثقل كاهل الناس ويزيد من معاناتهم، وفضلاً عن هذا وذاك وصل الحال إلى وقوع فتن مذهبية في بغداد وراح ضحيتها الكثير من الناس في سنتي (٣٤٨) و (٣٤٩) للهجرة[١٢٧]، وتوالت الفتن حتى نهاية العصر البويهي وكلفت العامة ثمناً مرهقاً في النفوس والأموال[١٢٨].

المبحث الرابع: السيول والزلازل والفيضانات

شهدت الدولة الإسلامية على مدار سنيها العديد من السيول والفيضانات والزلازل التي اجتاحت أماكن كثيرة ومتفرقة من أرجاء الدولة وأودت بحياة الكثيرين ودمرت الغلة والزروع واجتاحت القرى وهدمت المنازل وسنرى كيف تعاملت الدولة مع تلك الأزمات.

تشير المصادر الأولية لتاريخنا الإسلامي أن أول السيول حدث بمكة وذلك سنة (٨٠) للهجرة أوان الحج فذهب بالحاج فغرقت بيوت مكة وسمي ذلك العام (عام الجحاف) لأن ذلك السيل جحف كل شيء مر به، ورؤيت الإبل عليها الحمولة والرجال والنساء تمر بهم ما لأحد فيهم حيلة، وقيل أن الماء بلغ الركن (الكعبة) وجاوزه[١٢٩]، في حين يذكر اليعقوبي انه ذهب بمتاع الحاج فقط[١٣٠].

وفي سنة (٩٤) للهجرة وقعت الزلازل بالشام، ودامت أربعين يوماً، فخربت البلاد وكان عظم ذلك في أنطاكية[١٣١]، وتسمي المصادر الإسلامية الزلازل أو ما يعرف بالهزة الأرضية بالرجفة أو الزلزلة، ففي سنة (١٨٠) للهجرة حدثت زلزلة شديدة بمصر فسقط رأس منارة الإسكندرية[١٣٢]، وزلزلت المصيصة عام (١٨٧) فأنهدم بعض سورها، ونضب ماؤهم ساعة من الليل[١٣٣].

وفي سنة (٢٠٦) للهجرة غلب المد الذي غرق منه السواد وكسكر وقطيعة أم جعفر وقطيعة العباس وذهب بأكثرها[١٣٤].

وفي سنة (٢٤٢) للهجرة كانت الزلازل الهائلة بقومس ورساتيقها فتهدمت الدور ومات من الناس بها مما سقط عليهم من الحيطان، وذكر أنه بلغت عدتهم خمسة وأربعين الفاً وستة وتسعين نفساً، وكان عظم ذلك بالدامغان وكذلك كان بفارس وخراسان والشام زلازل وأصوات منكرة وباليمن مثل ذلك مع خسف بها[١٣٥]، وأصابت الشام كله زلازل حتى ذهبت اللاذقية وجبلة ومات خلق كثير، حتى خرج الناس إلى الصحراء وأسلموا منازلهم وما فيها ودام ذلك شهوراً[١٣٦]، كان ذلك في عام (٢٤٤) للهجرة وفي عهد الخليفة المستعين أصاب أهل الري زلزلة شديدة ورجفة تهدمت منها الدور ومات خلق من أهلها وهرب الباقون[١٣٧].

وفي حادثة لم تعهدها مدينة بغداد من قبل، ففي سنة (٢٦٨) للهجرة زلزلت بغداد وأعقبها مطر شديد دام ثلاثة أيام، ووقعت أربع صواعق[١٣٨]، وبعدها بأربع سنين وبالتحديد في سنة (٢٧٢) للهجرة زلزلت مصر وأخربت الدور والمسجد الجامع، وأنه أحصي في يوم واحد بها (١٠٠٠) ألف جنازة[١٣٩].

وفي عام (٢٧٩) للهجرة زلزلت دبيل وذكر أن جملة من اخرج من تحت الهدم خمسون ومائة ألف ميت[١٤٠]، وفي سنة (٢٨٩) للهجرة زلزلت بغداد من جديد ودامت الزلزلة أياماً وليالي[١٤١]، ولم نجد ما يشير إلى وقوع خسائر في تلك الزلزلة.

وفي سابقة لم تحدث من قبل في تاريخ بغداد، سقط الثلج حتى صار في الدور والسطوح من نحو أربعة أصابع[١٤٢].

وبعد مرور مائتان وسبع عشرة سنة على السيل الذي أجتاح مكة في سنة (٨٠) للهجرة ورد الخبر في سنة (٢٩٧) للهجرة إن أركان البيت غرقت من السيول، وأن زمزم فاضت لأول مرة[١٤٣]، وفي سنة (٢٩٨) للهجرة هبت ريح صفراء بمدينة الموصل فمات لأثرها وشدة حرها جماعة[١٤٤].

أنخسف جبل بالدينور يعرف بالتل وخرج ماء كثير من تحته أغرق عدة قرى، وانخسفت قطعة عظيمة من جبل لبنان وسقطت في البحر، ومد نهر دجلة مداً عظيماً لكثرة الأمطار في تلك السنة، وتناثرت النجوم –كما قيل– باتجاه خراسان، كل ذلك في سنة (٣٠٠) للهجرة[١٤٥].

فاضت دجلة بسبب زيادة الأمطار في سنة (٣١٠) للهجرة، وأنشق بواسط سبعة عشر شقاً أكبرها ألف ذراع وأصغرها مائتا ذراع، وأغرقت من أمهات القرى ما يربو على (١٣٠٠) قرية[١٤٦].

وللمرة الثانية في تاريخ بغداد سقط الثلج ببغداد في سنة (٣١٤) للهجرة حتى تلف أكثر نخل بغداد وسوادها وكذلك الاترج والتين والسدر، حتى جمد الشراب والماورد والخل، وجمدت الخلجان الكبار من نهر دجلة، وجمدت دجلة بأسرها بالموصل حتى عبرت الدواب عليها –كما ذكر–، أما الفرات فجمد أكثره بنواحي الرقة، ثم انكسر البَرَدْ بريح جنوب ومطر غزير[١٤٧]، ما يعني تأثر أعالي الفرات وأعالي دجلة بموجات برد قادمة من أوربا، وكلما ابتعدت باتجاه الجنوب قل تأثيرها.

وفي السنة نفسها هبت ريح عظيمة بنصيبين حتى قلعت الشجر وهدمت المنازل[١٤٨]، وفي سنة (٣١٨) للهجرة هبت ريح من الغرب في آذار حملت رملاً أحمر يشبه رمل الصاغة، فامتلأت منه أسواق بغداد الجانبين وسطوحها ومنازلها وقيل أنه من جبلى روذ[١٤٩]، وفي سنة (٣٢٧) للهجرة سقط مطر عظيم على بغداد وبَرَدْ كبير وسقط بذلك حيطان كثيرة[١٥٠].

بلغت زيادة الماء في دجلة والفرات مستويات غير معهودة في سنتي (٣٢٨) و (٣٢٩) للهجرة، وانبثق بثق من نواحي الأنبار فأجتاح القرى وغرق الناس والبهائم، وصب الماء في الصراة ودخل إلى شوارع بغداد من الجانب الغربي وتساقطت الدور والأبنية [١٥١]، واللافت

للنظر أنه مع تلك الزيادة لم تسقط الأمطار في سنة (**٣٢٩**) إلا مطرة واحدة لم يسل منها ميزاب[١٥٢]، ما يعني أن تلك السنة شهدت ارتفاع درجات الحرارة وأن الفيضانات لم يكن مصدرها الأمطار بل ذوبان الجليد في منابع الأنهار، في حين كثرت الأمطار للحد الذي تهاوت معه منازل الناس ومات خلق كثير تحت الهدم مع تساقط بَرَدْ وجليد أحرق أكثر الزروع سنة (**٣٣٢**) للهجرة[١٥٣]، وفي سنة (**٣٣٥**) للهجرة وقع ثلج في مكة بعد حر شديد[١٥٤]، وقع بَرَدْ بقرطبل فطحن الغلات[١٥٥]، وفاضت دجلة واحداً وعشرين ذراعاً، فغرقت الضياع والدور وذلك سنة (**٣٣٧**) للهجرة[١٥٦].

وأحدثت زلزلة عظيمة بالري ونواحيها خسائر فادحة مات فيها خلق كثير في سنة (**٣٤٦**) للهجرة[١٥٧]، وزلزلت بغداد وزلازل أكبر في حلوان وبلاد الجبل وقم وقاشان وقتلت خلقاً كثيراً وأخربت[١٥٨].

الخاتمة

تتعرض جميع الأمم على مر التاريخ إلى مخاطر الجوائح والكوارث إلا أن نسبة الضرر تختلف حسب نوع وشدة الجائحة أو الكارثة، فنجد مثلاً ان بعض المناطق تبتلى بالزلازل وأخرى بالأوبئة وغيرها بالقحط والمجاعات.

وبالنظر إلى المساحة الجغرافية المترامية الأطراف وتنوع التضاريس والأجواء، فضلاً عن أتساع الحقبة الزمنية التي حكمتها الدولة العربية الإسلامية، نجد أن ذلك أنسحب على أنواع من الجوائح والكوارث أصابت البلاد على فترات زمنية.

حاولنا في هذا البحث أن نتناول تلك الجوائح وعرضها في منهج تحليلي مع مراعاة التسلسل التاريخي للأحداث، مبينين أسبابها ومقادير الضرر الذي تركته مع كيفية الإشارة إلى تعامل الدولة معها، فوجدنا ان ذلك الأمر منوط بمدى قدرتها أي الدولة على التعامل الصحيح مع الجائحة حال وقوعها، ويظهر أثره بشكل متباين ونسبي، فمتى ما كانت الدولة قوية وراعية مخلصة لمصالح الأمة في أي عصر من عصورها وتعاملت بشكل إيجابي وحريص، كلما كانت الخسائر أقل وأخف وطأة، في حين إذا كانت الدولة ضعيفة ومنهمكة في المشاكل فأن ذلك

ينسحب بالضرورة في قصور تفاعلها وتلكؤها في الاستجابة لمتطلبات المرحلة وإعانة المتضررين وبالتالي تكون الخسائر أكبر، ومع مرور الزمن وتوالي المحن يصيب الوهن والضعف جسد الدولة فتتكالب عليها الأمم والدول أو تنسلخ أجزاء منها وتستقل بذاتها وتصبح مغلوبة على أمرها.

ولعل ما شهدته المدينة في سنة (١٨) للهجرة (عام الرمادة) وكيف تعامل الخليفة عمر بن الخطاب (ﷺ) مع تلك الأزمة يشير ويدلل على أن الدولة في أول أمرها لا بد لها بفعل قوة الدين وعلو همة الرجال الأولين وتمسكهم بأهداب الدين من الرفق بالرعية، في حين نرى أن بغداد في بدايات القرن الرابع الهجري ظهرت فيها مخاطر المجاعة والأمراض وأعمال النهب على نحو متزايد، ولم نشهد أو نلمس تحركاً أو إجراءاً حاسماً وقوياً لإصلاح الأوضاع من قبل مؤسسة الخلافة أو إدارة الدولة ووضع الحلول المناسبة، ذلك أن الدولة تفككت ولم يبق بيد الخليفة غير مدينة السلام وبعض السواد فبطلت الدواوين وتعطلت، فكيف لها والحالة هذه من وضع الحلول المناسبة في حال وقوع أية جائحة أو كارثة أو أزمة وكما أشار العلامة أبن خلدون إذ قال (أن المجاعات والموتان تكثر في أواخر الدول).

وخلصنا إلى أن الجوائح بكل تفصيلاتها وتأثيراتها إنما تترك آثاراً سيئة في المجتمعات وتزيد من تفككها في النواحي الاجتماعية والبنى السكانية ومن هدر للأنفس والممتلكات الاقتصادية والأموال وتعيق تطور الدول.

هوامش البحث:

١- أبن منظور، جمال الدين أبي الفضل محمد (ت٧١١هـ)، لسان العرب، تحقيق عامر أحمد حيدر، (بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣)، مج٢، ص٥٠٥.

٢- م.ن، مج٢، ص٥٠٦.

٣- أبن الأثير، مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت٦٠٦هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق محمود محمد الطناحي،(القاهرة، دار أحياء الكتب العربية، ١٩٦٣)، ج١، ص٢٤٢.

٤- م ن، ج١، ص٢٤٣.

٥- أبن سيدة، أبو الحسن علي بن اسماعيل (ت٤٥٨)، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق عبد الحميد الهنداوي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠)، مج٦، ص٧٩٣.

٦- أبن الأثير، النهاية، ج١، ص٢٥٧.

٧- م. ن، ج٤، ص٣٠٤.

٨- م. ن، ج٥، ص١٤٤.

٩- م. ن، ج٣، ص١٢٥.

١٠- أبن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ)، المقدمة، (بيروت، دار صادر، ٢٠٠٠)، ص٢٢٥.

١١- الطبري، محمد بن جرير (ت٣١٠هـ)، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل (مصر، دار المعارف، ١٩٧٩)، ج٤، ص٤٣.

١٢- م. ن، ج٥، ص٢٣٢.

١٣- أبن خلدون، المقدمة، ص٢٢٦.

١٤- أبن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت٢٣٠هـ)، الطبقات الكبرى، اعد فهارسها رياض عبد الله، (بيروت،دار إحياء الكتاب العربي، ١٩٨٦)، ج٣، ص٢٢١، الطبري، تاريخ، ج٢، أحداث سنة ١٨هـ، ص٥٠٧.

١٥- أبن عبد ربه، أبو عمر أحمد الأندلسي (ت٣٢٨هـ)، العقد الفريد، تحقيق أحمد الزين وإبراهيم الأبياري، (القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ١٩٤٠)، ج٦، ص٥١.

١٦- الطبري، تاريخ، ج٥، ص٦١٢.

١٧- أبن عبد ربه، العقد الفريد، ج٦، ص٢٥٠.

١٨- م. ن، ج٦، ص٢٤٩.

١٩- البلاذري،احمد بن يحيى(ت٢٧٩)،أنساب الأشراف،(بغداد، مكتبة المثنى،د.ت)، ج٤، ص١٥٧.

٢٠- الطبري، تاريخ، ج٦، ص٣٢٢.

٢١- أبن كثير، أبو الفداء، البداية والنهاية،(بيروت، الرياض،مكتبة المعارف، مكتبة لنصر، ١٩٦٦)، ج٩، ص٢٧.

٢٢- الطبري، تاريخ، ج٦، ص٣٢٥.

٢٣- الطبري، تاريخ، ج٧، ص٤٠، أبن كثير، البداية والنهاية، ج٩، ص٤.

٢٤- الطبري، تاريخ، ج٧، ص٩٢، أبن كثير، البداية والنهاية، ج٩، ص٣٠٩.

٢٥- الطبري، تاريخ، ج٧، ص٩٣، أبن كثير، البداية والنهاية، ج٥، ص٣٢١.

٢٦- البلاذري، أحمد بن يحيى، (ت٢٧٩هـ)، فتوح البلدان (القاهرة، مطبعة الموسوعات، ١٩٠١)، ص٣٩٠.

٢٧- الطبري، تاريخ، ج٧، ص٤٠١.

٢٨- م.ن، ج٨، ص١٦٥.

٢٩- أبن كثير، البداية والنهاية، ج١، ص١٤٩.

٣٠- اليعقوبي، أحمد بن جعفر بن واضح، (ت٢٩٢هـ)، تاريخ اليعقوبي، تحقيق محمد صادق بحر العلوم، (النجف، المكتبة الحيدرية، ١٩٦٤)ج٣، ص١٣٩.

٣١- الطبري، تاريخ، ج٨، ص٢٩٣.

٣٢- أبن سعد، الطبقات الكبرى، ج٣، ص٩٥١، مؤلف مجهول، العيون والحدائق في أخبار الحقائق (بغداد، مكتبة المثنى، د.ت) ج٣، ص١٠١.

٣٣- اليعقوبي، تاريخ، ج٣، ص٢٤٠.

٣٤- الطبري، تاريخ، ج١٠، ص١٤٦.

٣٥- أبن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت٥٩٧هـ)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، (بغداد، الدار الوطنية، ١٩٩٠)، ج٦، ص١١٥.

٣٦- م. ن، ج٦، ص١٢١.

٣٧- م. ن، ج٦، ص٢٨٢.

٣٨- م.ن، ج٦، ص٢٨٢، أصبهان:مدينة كبيرة في بلاد فارس بينها وبين قم حالياً سبعة وأربعون فرسخاً، ابن قدامة،أبي الفرج قدامة بن جعفر،(ت٣٢٠هـ)، الخراج وصنعة الكتابة، طبع اوفيسيت مكتبة المثنى، بغداد، ص٢٢٩.

٣٩- الهمذاني، محمد بن عبد الملك (ت٥٢١هـ)، تكملة تاريخ الطبري، تحقيق ألبرت يوسف كنعان،(بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٥٨م)، ص١٧٦.

٤٠- م. ن، ص٢٠١.

٤١- أبن الجوزي، المنتظم، ج٦، ص٢٩٣.

٤٢- م. ن، ج٦، ص٣١٩.

٤٣- م. ن، ج٦، ص٣١٦.

٤٤- م. ن، ج٦، ص٣٢٦.

٤٥- م. ن، ج٦، ص٣٧٥.

٤٦- م. ن، ج٦، ص٣٧٧.

٤٧- م. ن، ج٦، ص٣٨٤.

٤٨- أبن الأثير، النهاية، ج٦، ص٤٨٢.

٤٩- الطبري، تاريخ، ج٢،ص ٦٤٢.

٥٠- أبن سعد، الطبقات، ج٨، ص٤٨٢.

٥١- أبن خلدون، المقدمة، ص ٢٢٥.

٥٢- الرمادة: يقال رمدة وأرمده إذا أهلكه وصيره كالرماد، ورقدوا وأرقد إذا هلك، والرمد والرمادة الهلاك، ويذكر أن عمر (ﷺ) آخر الصدقة عام الرمادة، وكانت سنة جدب وقحط في عهده تخفيفاً عنهم، وقيل أنه سمي عام الرمادة لأن ألوانهم صارت كلون الرماد، أبن الأثير، النهاية، ج٢، ص٢٦٢.

٥٣- اللزبة: الشدة، أبن الأثير، النهاية، ج٤، ص٢٤٨.

٥٤- الطبري، تاريخ، ج٤، ص٩٦.

٥٥- م. ن، ج٤، ص٩٦.

٥٦- لبث: فيه (فأستلبث الوحي) هو أستفعل من اللبث: الإبطاء والتأخر، يقال يلبث لبثاً: وقيل اللبث: الاسم واللبث بالضم: المصدر، أبن الأثير، النهاية،ج٢، ص٢٤٤.

٥٧- أبن سعد، الطبقات الكبرى، ج٣، ص١٦٥، وقيل أنه حمل في البحر عشرين مركباً في المركب الثلاثة آلاف أردب، اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص١٤٤.

٥٨- ينظر أبن سعد، الطبقات، ج٣، ص ١٦٦.

٥٩- بخٍ بخٍ: معناه تعظيم الأمر وتفخيمه،أبن الأثير، ج١، ص ١٠١.

٦٠- أبن سعد، ج٣، ص١٦٦.

٦١- م. ن، ج٣، ص ١٥١.

٦٢- م. ن، ج٣، ص ١٦٨.

٦٣- الطبري، تاريخ، ج٤، ص١٠٠.

٦٤- أبن سعد، الطبقات، ج٣، ١٥١.

٦٥- ابن خلدون، المقدمة، ص٢٢٥.

٦٦- الطبري، تاريخ، ج٤، ص٩٨.

٦٧- أبن سعد، الطبقات، ج٣، ١٥٠.

٦٨- اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص١٤٠.

٦٩- الطبري، تاريخ، ج٤، ص١٨٩.

٧٠- م. ن، ج٤، ص١٨٧.

٧١- الصرم: الأبيات المجتمعة المنقطعة عن الناس، أبن الأثير، النهاية، ج٣، ص١٢٣.

٧٢- الطبري،تاريخ، ج٤، ص٢١٢.

٧٣- م. ن، ج٤، ص١٠٠.

٧٤- البلاذري، أنساب الأشراف، ج٤، ص٦٠.

٧٥- الطبري، تاريخ، ج٦، ص٢٧.

٧٦- م. ن، ج٦، ص٣٥٠.

٧٧- م. ن، ج٦، ٤٣٨.

٧٨- م. ن، ج٦، ص٤٨١.

٧٩- أبن خلدون، المقدمة، ص٢٢٥.

٨٠- الطبري، تاريخ، ج٧، ص٢٩٢، ومرو من أعمال وكور خراسان وهي: بلخ، مرو الروذ، هراة، أبرشهر، خوارزم، السغد.

٨١- فلهوزن، بوليوس، سقوط الدولة الأموية، نقله عن الألمانية محمد عبد الهادي أبوريدة، (القاهرة، مطبعة لبنة للتأليف والنشر، ١٩٦٨) ص ٣١٧.

٨٢- الطبري، تاريخ، ج٧، ص ٥٠٠.

٨٣- الطبري، تاريخ، ج٨، ص ٥٥٦.

٨٤- م. ن، ج٩، ص٨، ص١٠.

٨٥- م. ن، ج٩، ص١٢٤.

٨٦- م. ن، ج٩، ص١٢٩.

٨٧- م. ن، ج٩، ص٣٤٦.

٨٨- م. ن، ج٩، ص٣٤٦.

٨٩- م. ن، ج٩، ص٣١٩.

٩٠- م. ن، ج٩، ص٣٣٦.

٩١- م. ن، ج٩، ص٣٤٩.

٩٢- م. ن، ج٩، ص٤١٣.

٩٣- م. ن، ج٩، ص٥١٠، الكر: مكيال العراق يعادل ستون قفيزاً أو أربعون أردباً، العلي، صالح، الخراج في العراق، (بغداد، مطبعة المجمع العلمي، ١٩٩٠)، ص١٣٩.

٩٤- م. ن، ج٩، ص٥٨٦.

٩٥- ينظر،الدوري، عبد العزيز، دراسات في العصور العباسية المتأخرة،بلا، ص٧٦.

٩٦- الطبري، تاريخ، ج١٠، ص١٠.

٩٧- م. ن، ج١٠، ص١١٣.

٩٨- م. ن، ج١٠، ص١٩.

٩٩- م. ن، ج١٠، ص٣٣.

١٠٠- م. ن، ج١٠، ص٣٧.

١٠١- م. ن، ج١٠، ص١٣٢.

١٠٢- م. ن، ج١٠، ص٩٥.

١٠٣- أبن الجوزي، المنتظم، ج٦، ص٢.

١٠٤- م. ن، ج٦، ص٣٠.

١٠٥- م. ن، ج٦، ص٣٠.

١٠٦- م. ن، ج٦، ص٦٠.

١٠٧- م. ن، ج٦، ص١٢٨.

١٠٨- م. ن، ج٦، ص١٣٠.

١٠٩- الهمذاني، تكملة، ص٢١، الكبيسي، حمدان، أسواق بغداد، (بغداد، وزارة الثقافة، ١٩٧٩)، ص٢٩٥.

١١٠- م. ن، ص٢١.

١١١- م. ن، ص٢١.

١١٢- م. ن، ص٢٢.

١١٣- م. ن، ص٨٣.

١١٤- الهمذاني، تكملة، ص٢٩٢، أبن الجوزي، المنتظم، ج٦، ٣٧٦.

١١٥- الهمذاني، تكملة، ص٩٢ – ٩٣.

١١٦- م. ن، ص١٢٠.

١١٧- أبن الجوزي، المنتظم، ج٦، ص٢٨٨.

١١٨- أبن خلدون، المقدمة، ٢٢٥.

١١٩- أبن الجوزي، المنتظم، ج٦، ص٣٢٦.

١٢٠- الهمذاني، تكملة، ص١٣١.

١٢١- أبن الجوزي، المنتظم، ج٦، ص٢٩٦.

١٢٢- م. ن، ج٦، ص٣٣٩.

١٢٣- م. ن، ج٦، ص٣٤٤.

١٢٤- م. ن، ج٦، ص٣٤٩.

١٢٥- م. ن، ج٦، ص٣٦٩.

١٢٦- م. ن، ج٦، ص٣٧٧.

١٢٧- م. ن، ج٦، ص٣٩٥.

١٢٨- عبد العزيز الدوري، دراسات، ص٢٨٨.

١٢٩- الطبري، تاريخ، ج٦، ص٣٢٥.

١٣٠- تاريخ، ج٣، ص٢٣.

١٣١- الطبري، تاريخ، ج٦، ص٤٨٣، أبن كثير، البداية والنهاية، ج٤، ص٩٥، أنطاكية بناها الروم، من اعيان البلاد، موصوفة بطيب الهواء وعذوبة وسعة الخير، ياقوت، شهاب الدين أبي عبد الله الحموي، (ت٦٢٦هـ)، معجم البلدان، (بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧)، ج١، ص٢٦٦.

١٣٢- الطبري، تاريخ، ج٨، ص٢٦٦.

١٣٣- م. ن، ج٨، ص٣٠٢، والمصيصة: هي مدينة على شاطئ جيحان ومسماة بأسم الذي عمرها مصيصة بن الروم، ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص١٤٥.

١٣٤- م. ن، ج٩، ص٥٨١.

١٣٥- م. ن، ج٩، ٢٠٧.

١٣٦- اليعقوبي، تاريخ، ج٣، ص٢٢٤.

١٣٧- الطبري، تاريخ، ج٩، ص٢٥٦.

١٣٨- م. ن، ج٩، ص٦٠٢.

١٣٩- م. ن، ج١٠، ص٨.

١٤٠- م. ن، ج١٠، ص٣٥، والدبيل: مدينة بارمينية كانت ثغراً فتحه حبيب بن مسلمة في أيام عثمان بن عفان (ﷺ) في إمارة معاوية على الشام، ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٤٣٩.

١٤١- م. ن، ج١٠، ص٨٩.

١٤٢- م. ن، ج١٠، ص١٤١.

١٤٣- أبن الجوزي، المنتظم، ج٦، ص٩٠.

١٤٤- م. ن، ج٦، ص٩٨.

١٤٥- أبن الجوزي، ج٦، ص٩٨.

١٤٦- م. ن، ج٦، ص١٦٨.

١٤٧- م. ن، ج٦، ص٢٠٧.

١٤٨- م. ن، ج٦، ص٢٠٧.

١٤٩- م. ن، ج٦، ص٢٣١.

١٥٠- م. ن، ج٦، ص٢٩٦.

١٥١- م. ن، ج٦ ص ٣٠٠ - ٣١٦.

١٥٢- أبن الجوزي، ج٦، ص٣١٩.

١٥٣- م. ن، ج٦، ص ٣٣٥ - ٣٣٦.

١٥٤- الهمذاني، تكملة، ص١٥٣.

١٥٥- أبن الجوزي، المنتظم، ج٦٥، ص٣٥٠، وقرطبل من سقي الفرات ودجيل غربي دجلة، وهي عشرة رساتيق، أبن خرداذبة، ابو القاسم عبيد الله (ت٣٠٠هـ)، المسالك والممالك، طبع بالأوفيست لمكتبة المثنى ببغداد مع كتاب الخراج لقدامة بن جعفر، ص ٧ - ٨.

١٥٦- الهمذاني، تكملة، ص١٦٠.

١٥٧- ابن الجوزي، المنتظم، ج٦، ٣٨٤.

١٥٨- م. ن، ج٦، ٣٨٧.

ثبت المصادر والمراجع

١- أبن الأثير، مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت٦٠٦هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق محمود محمد الطناحي، (القاهرة، دار أحياء الكتب العربية، ١٩٦٣).

٢- البلاذري، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ): أنساب الأشراف، (بغداد، مكتبة المثنى، د.ت).

٣- فتوح البلدان (القاهرة، مطبعة الموسوعات، ١٩٠١).

٤- أبن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت٥٩٧هـ)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، (بغداد، الدار الوطنية، ١٩٩٠.

٥- أبن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ)، المقدمة، (بيروت، دار صادر، ٢٠٠٠).

٦- أبن خرداذبة، ابو القاسم عبيد الله (ت٣٠٠هـ)، المسالك والممالك، طبع بالأوفيست لمكتبة المثنى ببغداد مع كتاب الخراج لقدامة بن جعفر.

٧- الدوري، عبد العزيز، دراسات في العصور العباسية المتأخرة،بلا.

٨- أبن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت٢٣٠هـ)، الطبقات الكبرى، اعد فهارسها رياض عبد الله، (بيروت،دار إحياء الكتاب العربي،١٩٨٦).

٩- أبن سيدة، أبو الحسن علي بن اسماعيل (ت٤٥٨)، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق عبد الحميد الهنداوي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠).

١٠- الطبري، محمد بن جرير (ت٣١٠هـ)، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل (مصر، دار المعارف، ١٩٧٩).

١١- أبن عبد ربه، أبو عمر أحمد الأندلسي (ت٣٢٨هـ)، العقد الفريد، تحقيق أحمد الزين وإبراهيم الأبياري، (القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ١٩٤٠).

١٢- العلي، صالح، الخراج في العراق، (بغداد، مطبعة المجمع العلمي، ١٩٩٠).

البلاذري، احمد بن يحيى (ت٢٧٩):

١٣- فلهوزن، بوليوس، سقوط الدولة الأموية، نقله عن الألمانية محمد عبد الهادي أبوريدة، (القاهرة، مطبعة لبنة للتأليف والنشر، ١٩٦٨).

١٤- ابن قدامة، أبي الفرج قدامة بن جعفر، (ت٣٢٠هـ)، الخراج وصنعة الكتابة، طبع اوفيسيت مكتبة المثنى، بغداد.

١٥- الكبيسي، حمدان، أسواق بغداد، (بغداد، وزارة الثقافة، ١٩٧٩).

١٦- أبن كثير، أبو الفداء، البداية والنهاية،(بيروت، الرياض،مكتبة المعارف، مكتبة لنصر، ١٩٦٦).

١٧- أبن منظور، جمال الدين أبي الفضل محمد (ت٧١١هـ)، لسان العرب، تحقيق عامر أحمد حيدر، (بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣).

١٨- مؤلف مجهول، العيون والحدائق في أخبار الحقائق (بغداد، مكتبة المثنى، د.ت).

١٩- الهمذاني، محمد بن عبد الملك (ت٥٢١هـ)، تكملة تاريخ الطبري، تحقيق ألبرت يوسف كنعان،(بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٥٨م).

٢٠- ياقوت، شهاب الدين أبي عبد الله الحموي، (ت٦٢٦هـ)، معجم البلدان،(بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧).

٢١- اليعقوبي، أحمد بن جعفر بن واضح، (ت٢٩٢هـ)، تاريخ اليعقوبي، تحقيق محمد صادق بحر العلوم، (النجف، المكتبة الحيدرية، ١٩٦٤).